الحل العلمي للغز الكون والحياة

أيهما أسبق، أو ينبغي أن يكون أسبق في حياة الإنسان؛ الفكر أم السلوك؟

أعتقد أنه سؤال سهل غير معقد، وأن من اليسير معرفة الجواب عنه لكل أحد. فما من شك في أن السلوك إنما هو ثمرة الفكر والتصور، ومن ثم فالفكر هو الأسبق دائماً، أو هو الذي يجب أن يكون الأسبق في حياة الإنسان.

وكلما كان الفكر أدق وأصوب، كان السلوك أكثر تناسباً مع جوانب الحياة وأقرب إلى تحقيق الأهداف المرجوة.

وعلى الرغم من أنهم يقولون: ما من قاعدة إلا ودخلها الشذوذ، فإننا لا نكاد نعثر على أي شذوذ أو استثناء عن هذه القاعدة... إن الإنسان، أياً كان، ما دام عاقلاً سويَّ النظر والتفكير، لا بد أن يكون سلوكه أياً كان نتيجة تصور مبدئي وقرار فكري. ومهما صَغُر الموضوع الذي يتعلق به السلوك أو كبُر، فتلك هي القاعدة.

والآن، بوسعنا أن نطرح سؤالاً آخر: ما الموضوع الكلي الذي تندرج تحته آلاف الجزئيات التي يتناولها الفكر الإنساني ومن ثم يتعلق بها السلوك وتغدو ساحة لنشاطات الإنسان تجاه ذاته وغيره؟

obeikandl.com

لا شك أن هذا الموضوع الكلي إنما هو الكون والإنسان والحياة. فمهما كانت المسألة التي يفكر فيها أحدنا ليتخذ قراره السلوكي في حقها، فإنها لن تكون إلا واحدة من جزئيات هذا البنيان الكلي الذي هو الإنسان والحياة وسائر المكونات.

وإذا كانت القاعدة التي بدأنا حديثنا هذا بالتذكير بها صحيحة وكلية، لا يدخلها ريب ولا شذوذ، فإن من الضروري أن نبدأ فنسعى إلى فهم هذا البنيان الكلي الكبير، قبل أن نغرق أفكارنا في خضم جزئياته، فإن السعي إلى فهم أجزاء أو جزئيات شيء ما، قبل فهم الكل أو الكلي الجامع لأشتاتهما، سعي لا طائل منه. بل النتيجة هي أن يعود صاحب هذا السعي بتصورات زائفة وفهوم خاطئة لتلك الأجزاء أو الجزئيات المتناثرة.

فإذا تجاوز الإنسان مرحلة التصور والفهم، إلى السلوك والفعل، ازداد أثر أخطائه اتساعاً؛ إذ تتحول من نطاق الأخطاء النظرية إلى الضرر الواقعي والتطبيقي. ومن شأن الضرر الواقعي أن يتسع ويمتد، ثم لا يزال يتسع ويمتد إلى مدى لا يعلم حدوده ومضاعفاته إلا الله عز وجل.

أما الآن، فيحين أن نتساءل بجد: ما مدى اهتمام علماء الاجتماع اليوم بهذه الحقيقة؟ وما مظهر تطبيقهم لهذا المبدأ الذي فرغنا من بيان أنه مبدأ علمي سليم؟

إن علم الاجتماع اليوم ليس أكثر من مرآة تُبْرِز فيه كل أمة أو دولة ذاتها لتتجلّى عليها الآثار السلوكية للمذهب الفكري السائد

في تلك الأمة. فهو - أي علم الاجتماع - تابع غير متبوع، مقودٌ غير قائد.

ومن ثم فإنه لم يَحُلَّ إلى اليوم لأي مجتمع من هذه المجتمعات أي مشكلة على كثرة المشكلات الاجتماعية وتنوعها، ولم يحقق لها أي خير على الرغم من شدة افتقارها إلى شيء من الخير والإصلاح. والسبب هو أن هذا العلم ينطلق في رسم المجتمع من واقع سلوكي فرض نفسه، لا من فكرة تقوم على حياد القرار العلمي.

إذن لن نجد لأنفسنا من خير لدى علم الاجتماع، ولن نعثر في شيء من المذاهب السائدة فيه على ما قد ينجدنا لحل أي مشكلة. ولذا فلا مناص من أن نعود فنواصل سعينا إلى حل هذه المشكلة باستخدام القاعدة التي فرغنا من بيانها وعرفنا أنها الحق الذي لا ريب فيه. أي فلا بد من أن نبدأ السعي إلى تحصيل تصور علمي سليم لحقيقة الكون والإنسان والحياة، ومن ثم إلى معرفة قصة الرحلة الإنسانية والنهاية التي تنتظرنا في أعقابها.

ومهما كانت الأداة العلمية التي يمكن استخدامها للوصول إلى هذا التصور المتفق مع العقل والمطَمْئِنِ للنفس، فإن النتيجة لا بد أن تتلخص في معرفة ما يلي:

هذه الخليقة تتسم بالنظام الهادف الذي يَبْرُز جلياً في كل ما تنطوي عليه من دخائل وجزئيات أو أجزاء... إذن فلا بد أنها من صنع صانع ذي حكمة وتدبير... ثم إن هذه الخليقة، بكل جوانبها وأجزائها وأنواعها، تتسم بالوحدة ضمن الكثرة. يبرز

ذلك في دورانها الدائب على محور واحد لا يتبدل، كما يتجلّى في تناسقها المتضافر ابتغاء السعي إلى مقصد كلي لا ثاني له. ولن تجد من برهان علمي على هذه الحقيقة أدق ولا أجلى من برهان قول الله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٢].

ثم إن الوحي الإلهي تنزل لِيُكسب هذا البرهان العقلي والعلمي مزيداً من التأكيد والرسوخ، وليضيف إلى هذه المعلومة كثيراً من التفاصيل التي لا يمكن أن يستقل العقل وحده بكشفها والوصول إليها؛ إذ هي داخلة في الغيوب التي لا تخضع لوسائل التجربة والحس، فلا مطمع في الكشف عنها إلا بواسطة النص المُعْلِم بشأنها الشارح لتفاصيلها، على أن يثبت بالبرهان العلمي أن هذَا النص إنما تنزل وحياً من لدن صانع الكون ومبدعه إلى من قد اختاره رسولاً منه إلى الناس، يبلغهم من خلاله جملة البيانات والتعاليم التي ينبغي أن يعرفوها عن الكون والإنسان والحياة.

ولو أن الفلاسفة اليونانيين أتموا معارفهم العقلية التي أكدت لهم ضرورة وجود الصانع وكونه متصفاً بالحكمة والعلم والتدبير، بالإصغاء إلى الوحي الإلهي متمثلاً في النص، أو النقل المتمم للعقل، إذن لما تاهوا ولما اضطربوا في تصورهم لهذا الإله الصانع، ولما توهموه مرة في العقول العشرة، ومرة في إلهين واحد منهما للخير والآخر للشر، ولما ذهبوا في تصور علاقة هذا الصانع بمصنوعاته مذاهب شتى.

وإن العجب لا ينتهي من شأن هؤلاء الفلاسفة، كيف استطاعوا استعمال عقولهم في بعض الأمور إلى أقصى ما أمكنهم الوصول إليه من أغوارها البعيدة، وكيف عجزوا عن إدراك أمور أخرى إلى جانبها فلم يستطيعوا استعمال عقولهم حتى في الوصول إلى دراية سطحية لها!؟. فعلى سبيل المثال: إن أي عاقل لا يعجز عن معرفة أن المسائل الغيبية التي لا تدخل في نطاق التجربة والحس، لا يستقل العقل وحده بمعرفتها معرفة صحيحة؛ بل لا بد لذلك من تضافر كل من العقل والنقل معاً، غير أن أولئك الفلاسفة تاهوا عن هذه الحقيقة وعجزت عقولهم عن التنبه إليها، فحمّلوا عقولهم عبء كل من العقل والنقل معاً، وكانت النتيجة أن أورثتهم عقولُهم، بدلاً من العلم بها، القلقَ والاضطرابَ، ولم تأتِ إليهم بأي طائل. ولقد ظلت هذه الآفة عالقة بالفكر الفلسفي، حتى جاء الفلاسفة الإسلاميون، بكل فئاتهم، فنبهوا إلى هذا الخطأ الكبير وأبرزوا القسمة العادلة في منهج البحث بين كل من العقل والنقل، في بحوث مستفيضة تُعَدُّ بحقٍّ من أبرز مزايا الفلسفة الإسلامية ومن أهم ما استدرك به العلماء والفلاسفة الإسلاميون على الفلاسفة الإغريقيين.

والآن، ما هي الصورة التي عدنا بها عن هذه الموجودات المتمثلة في كل من الكون والإنسان والحياة، بعد أن اعتمدنا في السعي إلى فهمها على كل من صريح العقل وصحيح النقل؟

لقد علمنا أن هذه الموجودات، في مجموعها، كلٌّ واحد متناسق، وأن الإنسان في داخل هذا الكلّ أشبه بالنواة القائمة في

داخل الخلية. فما تتحرك هذه الأجرام الكونية، ماضيةً في أداء مهامِّها، إلا حول محور الإنسان، وما تسعى إلا في خدمته ولرعاية مصالحه.

أما الإنسان ذاته، فهو أكرم مخلوق على الله عز وجل، متعه بظلال من صفات ذاته العلية، لتؤهله لعمارة الكون والخلافة عن الله في إقامة موازين العدل ورعاية الأسرة الإنسانية على خير وجه، وهو الوجه الذي ارتضاه الله عز وجل لها... وقد أنبأه الوحي الإلهي بقصة نشأته وكيفية تكاثره فوق هذه الأرض، وأكد له خبر النشأة الثانية بعد الموت والجزاءِ العادلِ الذي أُعِدَّ له على كل ما قدمه في حياته الدنيا من خير وشر، كما أكد له أن هذه الحياة التي يعيشها اليوم ليست إلا ممراً إلى مقر.

ونظراً إلى ما أثبته كل من العقل والنقل من أن الصانع لهذه المكونات والمتصرف فيها واحد لا ثاني له في ذاته وصفاته، فلا بد من اليقين بأن شيئاً من هذه الموجودات لا يستقلّ بأي قوة أو تماسك، بل لا يستقلّ بأي وجود ذاتي لا ابتداء ولا دواماً، إذ لو استقل بشيء من ذلك في لحظة من اللحظات، منفصلاً عن المبدع والصانع، لانفكت عرا التناسق بينه وبين سائر الأشياء الأخرى، ولغاب معنى انجذابها جميعاً إلى محور واحد، ولحلّت الفوضى الوجودية فيما بينها محل النظام والهدف الغائي.

وإذا كان المجتمع الإنساني الذي شاء الصانع جلّ جلاله أن يجعله محور المكونات، كما أوضحنا، أسرة واحدة في الحقيقة، تدين بالعبودية لرب واحد، إذن من الطبيعي، بل من

الضروري في ظل هذا الشعور الوحدوي الجامع، أن تذوب مما بين أفرادها فوارق الأعراق والألوان والشعوب واللغات.

وأنا ألفت النظر إلى أنني أقول: تذوب فوارق الأعراق... إلخ، ولا أقول: تذوب الأعراق والألوان نفسها. وفرق كبير بين دلالة التعبيرين. إن شعور الإنسان بمعنى عبوديته لله عز وجل، وتحققه بهذه الهوية، وبالنسبة إلى أعضاء الأسرة الإنسانية الواحدة، ليس من شأنه أن يذيب تعددية الأقوام أو اللغات أو الشعوب... بحيث يصهرها ويصبها في قالب بشري واحد ينطق بلغة واحدة، وينتمي إلى عرق واحد، أو ينحدر من سلالة واحدة، فإن هذا باطل من التصور والقول... بل هو يناقض النظام الذي أقام الله عليه هذه الخليقة من عباده. فقد قضى الله عز وجل أن يكونوا كثرة من الأعراق والألوان والشعوب واللغات، على أن تحتضن كثرَتهم هذه وحدةٌ عامة شاملة يجسدها سلطان العبودية لله الواحد الأحد، ويجمعها نسق السير على ما يُرضي هذا الإله الواحد وحده... فهم في تلك الكثرة المشمولة بسلطان هذه الوحدة أشبه بالأغصان الكثيرة المتشعبة تتفرع عن جذع واحد، وتأخذ غذاءها وقانون نموّها وتماسكها من أصل راسخ واحد. وما أجلى هذه الحقيقة وأجمعها في قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].

ثم إنهم لن يؤلهوا طبيعة ولا مادة، ولن يستخذوا أمام أي من الشهوات والأهواء؛ لأن عبوديتهم الصادقة لله عز وجل تجعلهم

لا يقيمون وزناً لغيره أياً كان... إن الطبيعة والمادة، بكل ما قد يكون لهما من أنظمة وقوانين، جند من جنود الله تعالى، يحرّكه لحظة فلحظة كما يشاء... والأهواء والشهوات إن هي إلا عناوين فتنة وابتلاء، يستبين تحت فتنة حَرِّها الصادقون في عبوديتهم لله، إذ يلوذون بلطفه ويفرون إلى حصن حمايته، فإذا حَرُّها المتأجج بردٌ وسلام، والكاذبون في دعوى هذه العبودية، إذ يقبعون تحت أسرها ويستسلمون لأعاصيرها، فإذا الإله الحقيقي الذي يدينون له بالعبودية والولاء، إنما هو هذه الشهوات والأهواء، لا ربُّها وخالقها الذي جعلها لعباده مادة امتحان وابتلاء. وجل من قال في محكم كتابه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤٣].

ولكنهم في الوقت ذاته ما ينبغي أن ينفضوا أيديهم من استخدام ما سخره الله لهم، وجعله طوع سلطانهم العقلي ثم العضلي، بل أمرهم أن يتخذوا ذلك كله جنداً لهم في عمارة الأرض بأوسع معانيها الحضارية، كما حذّرهم من أن يبتعدوا ويتنكروا للفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها فيحرموا حلالاً أو يضيقوا على أنفسهم واسعاً أو يزهدوا فيما امتن الله عليهم به. فهم - وقد أيقنوا بوحدانية من بيده كل شيء، واصطبغوا بأتم معاني العبودية له والافتقار إليه - يظلون يعبرون عن فقرهم إليه بمدّ الأيدي إلى عطائه والتقلب في كل ما يرد إليهم من نعمائه، ولا ريب أنهم بذلك خير من يدرك معنى قوله عز وجل: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ

غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥/٣٤] وخير مَن يتفاعل معه ويستجيب له عبودية وشكراً. ولقد ورد في ترجمة معروف الكرخي رحمه الله أنه كان لا يحرم نفسه من التمتع بالطيبات التي يكرمه الله بها. فإذا جاء من يذكره بالزهد قال له: «إنما أنا ضيف عند ربي إن أطعمني أكلت وإن منعني صبرت»، ولعمري لا يستبين الفقر إلى الله إلا عند مدّ يد الحاجة إلى عطاء الله. فمَنْ كفَّ يده عن الطلب من الله تعالى تعففاً وزهداً، فقد حاول بذلك أن يثبت عدم افتقاره إلى الله، وهيهات أن يستقيم له ذلك.

❊ ❊ ❊

تلك هي الآثار التربوية والاجتماعية التي لا بد أن يثمرها اليقين بوحدانية الله عز وجل. ومن مجموع هذه النتائج والآثار يتكون المجتمع الإنساني السوي والسليم، ويتكامل بناء الحضارة الإنسانية المثلى.

ومهما ظل الناس شاردةً أفكارُهم وتصوراتهم عن التنبه إلى الحقيقة الكونية التي لا تخفى على من سلط عليها أشعة النظر العلمي المتحرر، ذاهلةً عقولُهم عن أن هذه الكثرة الكونية إنْ هي إلا ضِغْث في قبضة رب العالمين وحده يرعاه ويتصرف به كما يشاء - فلسوف يبقى لغز هذا الكون مستعصياً على الحل مهما تفرعت واتسعت بحوث العلماء، ومهما تعمقت نظرات الفلاسفة وعلماء الاجتماع، ومن ثم فلسوف تبقى المشكلات الإنسانية المختلفة في تفاقم وازدياد.

مآسي الدنيا التي من حولنا، والنُّذُر التي يمتد ضبابها وراء بريق المدنيات والحضارات، والضيق الذي ينتاب الصدور، والأمراض التي تجتاح الجسوم والنفوس، دون أن يتبدّى بريق أمل في إمكان التخلص من هذه الآفات - لأكبر شاهد على ما نقول.

تلك هي آيات الله في الآفاق... وها هي ذي آيات الله في أنفسنا... اجتمعت لتكون شاهد صدق على أن هذا الكون كله إنما هو مملكة الله، لا حكم فيه إلا لله، ولا أمل في الوصول إلى الخير الحقيقي والسعادة الاجتماعية إلا بالاصطلاح مع الله.

فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟

غير أن في الناس من يصرون على أن استبانة الإنسان لهذه الآيات الإلهية في الآفاق، مع ما أوضحناه من آيات الله في الأنفس، إن هو إلّا هروب إلى الظلام، في حين أن الركون إلى الحيرة المتسائلة عن المبدأ وعن المصير وعن معنى الوجود، هو الضياء الذي يجب أن يستنير بشقائه الإنسان. ولقد سبقهم سارتر في مذهبه الوجودي إلى هذا الاكتشاف فعاش يقدس الحيرة ويعبد القلق والاضطراب.